

مقومات شعر الغزل عند الحار دلو

د. محمد عبد القادر الأمين حمد النيل /
أستاذ الأدب والنقد، المساعد، جامعة البطانة، كلية التربية رفاعة، عميد شؤون
الطلاب .

موبايل: (٠١١٤٦٩٥٦٦٢).

د. الفضل إبراهيم الصادق علي/

أستاذ النحو والصرف المساعد، جامعة البطانة، كلية التربية رفاعة، رئيس قسم اللغة
العربية والدراسات الإسلامية.

موبايل: (٠١١٤١٩٩١٧٧).

المستخلص

تهدف هذه الدراسة للوقوف على مقومات شعر الغزل عند الحار دلو، بوصفه رائداً من رواد الأدب الشعبي في السودان، تأتي أهمية هذه الدراسة في أن شعر الغزل قد اهتم به الشاعر العربي قديماً وحديثاً، ولم يقصر باع شعراء السودان من اللحاق بذلك الركب. اتبعت الدراسة المنهج التحليلي والوصفي، توصلت الدراسة إلى نتائج أهمها: أن الحار دلو ونتيجة للحياة الوداعة الناعمة التي عاشها نجده قد هام بالإماء علاوة على هيامه بالحرائر، وتحدث عن الإماء حديثاً سافراً، كما أن الحار دلو سار على نهج الأقدمين في معانيهم التي وصفوا بها المحبوبة، من نهد ضارب، ولمى لعساء، وشعر طایل، هذا علاوة على أن لغة الحار دلو من مصطلحات قبيلته التي حافظت عليها مئات السنين. توصي الدراسة بتناول شعر الحار دلو من أطر مختلفة، وجوانب متعددة.

Abstract

The characteristics of flirtation poetry in Alhardalw life.

This study is aimed to shed light on the characteristics of flirtation in Alhadalws life . As he considers as a pioneer of the public arts in Sudan. The significance of the study emerges from that. the flirtation poetry has received great attention from Arabic poet in all times. The Sudanese poets have a great impact in this domain. The study follows the analytical and descriptive approach. The study has some results , the importance ones are. Alhardalaw and as a result of his luxurious life , loved both servant and the free ones and he describe the servants without shyness. Also, he follows the approach of old ones in describing the she-beloved. as appointed nipple, soft lips and long hair .In addition to that. Alhardalaw language is taken from the terminologies of his tribe which is kept for hundred years .The study has recommended to take Alhardalaw poetry from various angles.

الجار دلو

اسمه :

هو محمد بن أحمد بن عوض الكريم أبي سن (١٨٣٠ - ١٩١٦) ينحدر من بيت ملك مؤثر وأسرة كانت لها السيادة على جميع أرض البطانة ، وأقرب جدوده الشيخ عوض الكريم (أبو علي) ، الذي كان زعيم الشكرية . وأدرك سلطنة سنار على أيام ملك بادي أبي شلوخ، وهو الذي ملكهم أرض الشكرية في سنة ١٧٩١م بموجب وثيقة منحه فيها أرضاً واسعة بين النيل الأزرق والرهذ ونهر عطبرة ، هي أرض البطانة ليعمر فيها قبيلة الشكرية إلى ما شاء الله لا ينازعه فيها منازع [١٠] . أما أبوه أحمد بيك عوض الكريم (أبو سن) فهو زعيم الشكرية بعد أبيه ، منحه الأتراك لقب (بيك) وعينه شيخ مشايخ السودان . وهو أول مدير سوداني للخرطوم في العهد التركي فصار سلطاناً على كل القبائل القاطنة بين النيل الأبيض وحدود الحبشة . وبقي منصبه هذا عشر سنوات حتى مات مسموماً في مصر على يد مناوئيه من الأتراك . وكان موضع إعجاب كل من رآه من قبل [١٢] .

لقبه :

اختلفت الروايات في سبب لقب الشاعر الكبير محمد بن أحمد عوض الكريم (أبو سن) (بالحار دلو) ، يقول حفيده الدكتور إبراهيم الحار دلو : « إن اللقب مركب من كلمة « الحار » وكلمة « دله » والدل معناه عند الشكرية « القيادة » فيكون المعنى : أن هذا الرجل وعر المسالك طرقه تورد موارد الخطر والأهوال فلا يسلكها ولا يقوى عليها إلا أمثاله من الرجال الأقوياء [٦] . والذي يؤيد ذلك الزعم أن الحار دلو قد رأسه أبوه على الإقليم الشرقي من البطانة ، وهو الإقليم المتاخم لنهر عطبرة ويشمل منطقة كسلا ، فحكم إقليمه وأداره إدارة فيها شيء من الجبروت ... حتى سموه (الحار) أي الشخص الحاد المزاج وطلبوا من أبيه أن يبعده ... فقالوا له : (الحار دله) يعني هذا الشاب الشديد (دله) أي أنزله ونحّه عن الإدارة [٦] . وهناك رأي آخر في سبب اللقب إذ يقول صاحبه: (إن البنات « حردلو » أي شغفن به عن سائر الشباب ، فتركنهم وانشغلن به وحده) [٨] .

قبيلة الحار دلو :

ينتمي الحار دلو إلى قبيلة الشكرية ، وهم من عرب البطانة الخُصّ الأفضح ، من أنقى القبائل العربية في السودان نسباً ، وبيتهم مضرب المثل في المحافظة ، ولغتهم مضرب المثل

في الأصالة . فموقعهم هذا جعلهم بمنأى عن مخالطة القبائل الأخرى (غير العربية) التي ترتضخ لغات أخرى ، حيث سلم لسانهم من الهجنة ٥ - الهجنة يقال رجل هجين ، أي بين الهجنة ، وإنما تكون من قبل الأم ، فإذا كان الأب عتيقاً والأم ليست كذلك كان الولد هجيناً - واللكنة ، التي نجدها عند معظم عشائر السودان ١٢ □ .

واختلفت آراء الباحثين في أصل الشكرية ، فمنهم من وصلهم بجهينة ، ومنهم من وصلهم بفزارة، ولكن الأرجح أن نسبهم يرجع إلى قريش ، وقريش هي أس الفصاحة واللسن ، التي باهى بها النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) حيث قال : (أنا أعرب العرب ولدت في قريش ونشأت في بني سعد فأنتي اللحن) ١١ □ . وهم عرب بدو وفدوا إلى السودان بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر من الجزيرة العربية كسائر القبائل عن طريق البحر الأحمر والحبشة ومصر وغرب السودان ٩ □ . وكذلك عن أصل الشكرية نرى أن عون الشريف قاسم قد نسبهم إلى جهينة إذ قال : « إن الشكرية قبيلة عربية تسكن أرض البطانة المحدودة بين النيل الأزرق غرباً ونهر اتبرا شرقاً وحدود الحبشة من الشمال الشرقي . وهناك اختلاف في نسبهم ، إذ نسبهم معظم النسابة إلى بشير بن ذبيان بن عبد الله الجهني ، فهم من جهينة التي نزحت إلى السودان في القرن الرابع عشر ، ولكن بعض المؤرخين يقولون : (إن بني ذبيان ليسوا من جهينة ، بل هم من قيس عيلان بن مضر العدنانية ، ولكنهم بحكم جوارهم لجهينة واختلاطهم بهم ، ونسبة لكثرة الوافدين من جهينة اليمنية إلى السودان ، فقد نسب الشكرية إلى جهينة) ١٦ □ . ومهما اختلفت الروايات والآراء في نسب الشكرية نرى أن ارتباطهم بالقرشيين مؤكد ، ولعل هذا الاختلاف جله لم يخرج بالشكرية من دائرة العرب - الذين جاءوا للسودان من جزيرة العرب - ولا عن قريش ، ولا العترة النبوية ، وذهبنا في ذلك مذهب البروفيسور أحمد إبراهيم أبو سن إذ قال : (أما المؤرخون من قبيلة الشكرية نفسها فلهم نسب يختلف عما ورد في كتب التاريخ تماماً ، إذ يرجعون بنسبهم إلى جعفر الطيار ، فهم قرشيون من العترة النبوية) ٨ □ .

وللحارذلو من ناحية النسب ارتباط وثيق بالمركيين وذلك من ناحية الأم ، إذ يقول الشريف الهندي : « كل من تمت له نعمة في السودان فإنها دون ما أنعم الله به على المدير أحمد بيك أبو سن وأولاده ، فنسبهم متصل بجعفر الطيار ، ووالدة المدير التاية بنت الشيخ يوسف أبو شرا (من أعظم رجال الدين) . أما والدة الشاعر كما يقول الشريف فهي من الدريشباب أعظم قبيلة في الشكرية ٢١ □ . والشكرية كثيراً ما يعتدون بذلك النسب الخالص ، خاصة بجدهم لأهمهم الشيخ يوسف أبي شرا ، إذ يقول أحمد عوض الكريم أبو سن :

يوسف في الغروب يوسف صعيد وشمال
يوسف في أبحراز لي عيشة الهمال
يوسف حد صلاح يوسف عرف وكمال
يوسف يأتي لي ويحقق الآمال □ ١٤ □
ويقول في موطن آخر يؤكد فيه انتماءه للشيخ يوسف أبي شرا :
يا هامرده يا دفع الله يا أبو التاية
وراجع مرتين في التاية
بالجاه العظيم والألف على المصلاية
غيث نجدتي خلي الناس يشوفوا نباي (١٤)

سمت الحارذلو :

إن الحارذلو سليل بيت حكم ورتاسة ، ومجد تليد ، ذلك المجد وتلك النشأة التي نشأ فيها الحارذلو جعلته دائم الاهتمام بنفسه حساً ومعنى، فكان دائم الاهتمام بمظهره ، وذلك لأن الطلعة البهية ، والملبس الجميل من الأشياء التي تألفها النفوس وتهواها الحسان ، ولعل ما يؤيد ذلك الزعم قول محمد عبد الرحمن : (فالحارذلو شاعر قبل كل شيء يحرص دائماً كمادة الشعراء أن يكون ظريفاً ، حسن البدة ، نظيف الملبس ، متخايلاً مدلاً ؛ لأنه حبيب العذارى وطلبة كل فتاة . وقد تحقق في يوم ما بكل هذه الأوصاف « فعدل » أي مشى الخيلاء وتقطع في مشيه .

الغزل لغة :

جاء تعريف الغزل لغةً في لسان العرب : التغزل حديث الفتيان والفتيات ومغازلتهن ومراودتهن ، والتغزل: التكلف لذلك . وهناك تعريفات أخرى كلها متقاربة . □ ٢٠ □
الغزل في اصطلاح أهل الأدب : هو غرض من أغراض الشعر ، موضوعه الشعر والهيام ، وقوامه ذكر المرأة ، ووصف محاسنها الخلقية ، ومعانيها الجمالية ، والتعبير عما يختلج في نفس العشاق من تباريح الهوى ، ولواعج الوجد ، وما يعرض له في حبه من أحداث ومفاجآت ، ومن وصف وحرمان ومن مغامرات وذكريات .

المرأة في الشعر العربي :

ظلت المرأة في الشعر العربي محط أنظار الشعراء قديماً وحديثاً ، منذ العصر الجاهلي وحتى الآن ، ومن ثم صوروها في أبهى الصور وألبسوها أنفس الحلل ، وصاغوا حولها قصصاً وحكايات هي من أبداع ما رسمته ريشة الشعراء في لوحاتهم الفنية .
وأدرك الشعراء بحسهم الفني مكانة المرأة ودورها في أشعارهم ورواجها فصوروها

وعدوها عاملاً رئيساً في جذب انتباه المتلقي حتى قالوا : « إن مقصد القصيد إنما ابتداءً فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكى ، وخاطب الربيع ، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها .. ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصباية والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس لأئط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فلا يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق » [١٧] .

إذا كان لها الربيع والقدح المعلى في القصيدة العربية ، ففي العصر الجاهلي وصدر الإسلام الأموي - في أغلب الأحيان - كانت تستهل بها القصيدة ، إذ يتحدث الشاعر عن حسناتها وجمالها ، من قد ممشوق ، ونهد ضارب ، وشعر فاحم طایل ، وردف صغير تعجز عنه حملة ، وعيون دعجاء ، وطى لعاء ، وإذا ما ذهبنا إلى أبعد من ذلك نرى كثيراً من الشعراء ارتبطت بإسماء محبوباتهم ، كما هو معروف عن كثير عزة ، وجميل بثينة ، وقيس ولبنى .

والغزل من أقدم الفنون الشعرية عند العرب وأكثرها شيوعاً لأنه متصل بطبيعة الإنسان وبتجاربه الذاتية خاصة وأن الحب يحرك كل القلوب . والشعراء دون غيرهم يصورون هذا الحب بعاطفة صادقة فيتدفق على ألسنتهم من ووجدان مرهف ليعبّر عما يجيش في خاطر الشاعر وعما يختلج في قلبه . الغزل ينبع من النفس بعد أن يتفجر الحب في أعماقها ، وبما أن الحب أحساس مشترك بين جميع الناس ، فإنهم يجدون لذة في سماع أشعار الحب فيتخيل كل واحد أن هذا الشعر يمثل قصته يحكي آلامه وآماله . ليس تعبيراً عن تجربة ماضية فقط ، إنه تعبير عن تجربة ماضية أو حاضرة تترك أثرها في مستقبل كل إنسان . أما في أدبنا العربي ، فقد احتل حيزاً كبيراً من الشعر وفي مختلف العصور ، ونظمه أكثر الشعراء وتغنوا بالمرأة ووصفوا عواطفهم وخفقات قلوبهم وعذاباتهم بأروع اللوحات الوصفية والقصصية الحوارية .

عرف الشعر العربي الغزل بكل أنواعه ، العف والإباحي لكن معظم قصائد الغزل اتحدت من حيث تقسيمها كالبداء بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار ورسم مشاهد ارتحال الأحبة ووصف المحاسن الجسدية والخلقية عند المرأة . كما اتحدت قصائد الغزل في صفات المحبوبة لكون الشعر الأسود ، والبشرة البيضاء ، والعيون السوداء ، وأحبوا المرأة المرفهة التي يفوح منها الطيب ، وجميعهم شكوا من غدر الحبيبة ولوم اللائمين ومحاولات التفريق بينهم وبين الحبيبة . [١٩]

ففي العصر الجاهلي كان الشاعر الجاهلي يعشق المرأة المخدومة ، ضخمة الجثة ، وذلك لأنها لا تعمل ، وزوجها الرجل ذلك الرجل القوى الشجاع . والباحث في ثنايا الشعر العربي . يجد الشواهد على ذلك تترى ، إذ يقول الأعشى في سميت محبوبته غراء الحبيب ذات الشعر الطويل ، والأسنان البيضاء المصقولة المفلجة ، والجسم المثقل باللحم

وَدَعُ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ
غَرَاءُ فَرَعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَجِلُ
كَأَنَّ مَشِيئَتَهَا مِنْ بَيْتٍ جَارَتْهَا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ ٢٢

ونرى عنتره بن شداد ينظر إلى المرأة نظرة الفارس بإعتبارها رمزاً للحياة ، وأمتلاكها امتلاك للحياة وانتصار على الموت والفناء ، ولذلك كانت الأطلال رمزاً للفناء ، ولذلك أيضاً كان الفارس في غمار الموت يذكر الحياة ، كان النقيض يستدعي نقيضه . يقول عنتره :

ولقد ذكرت والرماح نواهل منى × وبيض الهند تقطر من دمي
وودت تقبيل السيوف لأنها × برقت كبارق ثغرك المتبسم ٢٢

وفي عصر صدر الإسلام وعلى الرغم من أن الإسلام أحدث انقلاباً كبيراً في مختلف مناحي الحياة ، فالأدب لم يكن بمعزل عن تلك المتغيرات ، إلا أن كعباً بن زهير عندما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم معتذراً بقصيدة اعتذار وتوبة ؛ استهلها استهلالية غزلية ، وأظن أن السبب في ذلك أن العرب ما زالوا حديثي عهد بالإسلام ، وهم أصحاب تلك الاستهلالية ، يقول :

بَانَتْ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مَتِيمٌ ائْتَرَهَا لَمْ يُجْزَمَ مَكْبُولٌ
وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَغْنَى غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ
هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءُ مُدْبِرَةٌ لَا يُشْتَكِي قَصْرٌ مِنْهَا وَلَا طَوْلٌ

مما سبق نلاحظ مكانة شعر الغزل الذي صاغه الشعراء في معشوقاتهم . إذ تتأكد أهمية هذا الشعر عند السواد الأعظم من الناس لما فيه من عنصر الجذب ، والإثارة ، والتشويق .

فالتغزل في النساء تشتهيهِ الأنفس وتميل له الفطرة البشرية . قال الله تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة ...) «آل عمران الآية ١٤» . فقدم جل وعلا النساء لأن أكثر الرجال إنما يقع في المحذور والخلل من قبل هذه الشهوة . مقومات الغزل عند الحارثي :

حاز الغزل النصيب الأوفر من أغراض الشعر السوداني عموماً ، والشعر الشعبي خصوصاً . والغزل في الدوبيت غزل حسي صريح يهتم بذكر مفاتن المرأة من شعر أسود

كثيف وعيون نخلاء كعيون الريل والظبية ، وعنق باه كعنق الصيدة ، وصدر عال مستدير ، وكنف هادل ، وخصر نحيل ، وردف ضخم وحيل ، وقامة مربعة بين القصر والطول . وأحتل فن الغزل والتشبيب بالمحبة والشكوى من الوجد وبعد مواطن الحبيبة وذكر السهاد والأرق ، ثم وصف مشاهد اللقاء معها ، وتشبيه المحبوبة بالظبية الدرعاء ، والمهرة الحسناء - احتل هذا الفن حيزاً كبيراً من الشعر □ ٨ □ .

والمرأة دوماً ما تمثل المتعة ، وهي سبب من أسباب الحرص على الكسب والجد والاجتهاد ، فهي محط أنظار العشاق وغاية مبتغاهم فكل غال ومرتخص من أجل المرأة ، يقول الجاحظ : (وعامةً اكتساب الرجال وإنفاقهم ، وهمهم وتصنعهم ، وتحسينهم لما يملكون ، إنما هو مصروفٌ إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء ، ولو لم يكن إلا التَّمَصُّ والتطيب والتطوُّس والتعرُّس والتخضُّب ، والذي يُعدُّ لها من الطيب والصَّبغ ، والحلي ، والكساء ، والفُرُش ، والآنية ، كان في ذلك ما كفى ، ولو لم يكن له إلا الاهتمام بحفظها وحراستها ، وخوف العار من جنايتها والجناية عليها ، كان في ذلك المؤنة العظيمة ، والمشقة الشديدة .) □ ٤ □ .

إن المرأة في شعر الحارذلو تبدو كالشمس في رآد الضحى فنراه مغرم بها وهائم في عشقها ، ولعل ذلك راجع إلى أن الحارذلو ولد ونشأ في بيت عز ومجد منيف ، أهله لكي يعيش تلك الحياة الهادئة الوداعة . إذ يقول الطاهر محمد علي : (فنشأ الحارذلو بلا التزامات وبلا قيود اللهم إلا هذه القيود الاجتماعية التي يفرضها النظام القبلي ، أما غيرها فكان حراً طليقاً في منطقة توافرت فيها كل أسباب الجمال وحبها الطبيعية بمناظرها الجذابة خصوصاً في فصل الخريف ، حيث تهطل الأمطار ويتكاثر الصيد ... وتنتقل الجمال في مراعيها تحت أنغام الحداة . ولقد كان لكل هذه الحياة أثرها الفعال في تكوين شاعرية الحارذلو . فشب متعلقاً بجمال الحسان تغزل فيهن وغنى لحسنهن وجمالهن ... وصادق الجواري لتساهل المجتمع القبلي حيالهن ، واتخذ منهن العشيقات وغنى لهن في أشعاره) □ ٢ □ .

الغزل بالجواري :

إن المتتبع لشعر الحارذلو يستطيع أن يلحظ بوضوح تعلقة بالجواري ، فهو تارة مع التاية وتارة مع ست النفور ، وتارة مع أم نعيم ، وأخرى مع السارة ، وهذا التنقل بين الجواري يبين بوضوح أن حب الحارذلو لهن كان حبا حيا خالصا ، ونحن إذا تتبعنا هذه المربيع نستطيع أن نلمح حياة المجون التي انغمس فيها الحارذلو □ ٢ □ .

ولم يكن شاب كالحارذلو في ميعه صباه إلا مطلباً لكل غاية وهدفاً لكل جارية وانغمس في حياته معهن متمسكاً طريقه إلى جمالهن ... وقضاء وقت طيب معهن ، والحارذلو في

إحدى أبياته الشعرية نراه متذكراً عشيقته التي فارقها ، فبكى لهذا الفراق حيث طاف بخاطره جمالها وأيامه التي قضاها معها ... والحارذلو في هذه الفترة كان يتصيد اللذة ، وينشد قضاء وقت طيب معهن ، يقول :

البارح طريت لك هوية ليل
مسافتك يا أم رشيم لي أبعدت بالحيل
الخلي حبيب عيني جلياً سيل
ضوق الكمعة مسخ تافح القنديل □□

والحارذلو في إتيانه الجواري والإماء دون الحرائر فهو ملك يمكنه أن يلهو بمن شاء من الحرائر، حيث كان الأمر حاضراً في بوادي السودان وقراه على أيام الشاعر وحتى زمان قريب ، ويرجع قاسم بدري ذلك إلى أسباب حيث يقول : (سبب ذلك راجع إلى هيمنة الحجاب على حياة المرأة السودانية التي تمنعها ذووها من مجالسة الغرباء ومحدثهم ، وعانى العشاق من شدة الصبابة وحرقة الجوى ما جعل أشعارهم تفيض بالشكوى والحُرمان (□□١٠ . ويرى إبراهيم القرشي : « إن تعلق الحارذلو بالإماء والمبتذلات كان واضحاً ولعل ذلك راجع إلى أن الطريق إليهن ميسوراً ، وكان معظمهن من إماء البيت المالك الكبير (بيت آل أبي سن) ، أو من إماء القبيلة عامة فقد كان الرق سائداً وقتذاك ، أو كان أكثرهن ربيبات بيئة الحانات (الأنادي) المنتشرة . » ومن الجواري اللاتي هام بهن الحارذلو : أم نعيم ، وهي إحدى إماء الشكرية ، فطلب الحارذلو من عواده أن ينقلوا أخباره ، وخاصة في وقت القائلة يعني الظهر ، تلك الحالة التي لو أحس بها فهو ميت لا محالة ، وذلك من جراء الإصابة التي جاءت من أم نعيم بسهمها في فؤاده ، والسهم هنا سهم العشق والصبابة ، ثم تركت هذا السهم مخترقاً فؤاده مقدار شبرين ، وهل لمصاب ذلك السهم شفاء . يقول :-

ودُّوا أخباري يا عوادي
وقولوا مقليلو إن أمسابو يصبح قاضي
شمباني أم نعيم ضارباني بي في فؤادي
قبلو معضضة وشبرين مَرَّق بي غادي □□٦

والحارذلو من شدة تعلقه بالمرأة يرى الليل طويلاً عندما يأتي المساء ، وإذا جاء الصباح تزداد عليه حسارات (أم نعيم) فماذا هو فاعل إزاء هذا الألم والضنى ، وهذا أمر معروف عند العشاق منذ زمن طويل ، فقد ورد في أشعار الأقدمين :

وما في الخلق أشقى من محب

تراه باكياً في كل حين
فبيكي إن نأوا شوقاً إليهم
وإن وجد الهوى حلو المذاق
مخافة فرقة أو لاشتياق
ويبكي إن دنوا خوف الفراق

يقول الحارذلو :
إن أمسيت الليل عليّ بعيد
وإن أصبحت حسارات أم نعيم بتزيد
من فور محورها الراسو ونصابو حديد
بطني إتشيمطت وإتل قلبي هريد □□

والحارذلو في شعره الواصف لمحاسن المحبوبة يتحدث عن ذلك النهذ الضارب ، الذي صاغه ذلك الصائغ الماهر (تبل) وفي ذات الوقت يصف لنا لعبة الحردي في التي يتبارى فيها النهذ والعقد ومسرحها ذلك الصدر الواسع ، ولعبة الحردي في لعبة محببة عند البنات ، وهي أن تنط البنات وهي جالسة على قدميها خطوات تضع ساقاً فوق ساق . وذلك يوم الحفل حين نهض الناس للرقص والطرب حين انتصرت تلك الفتاة على أندادها وصفعتهن كما يفعل المنتصر بسوطه من نشوة الانتصار . يقول الحارذلو :

نهداً دق تبل ماهو المدوشش قرو
يلعب حردي في توو المراقد ترو
في بوش العصير الناس يقوموا يبرو
فوق ندهاها كرباج النصر بتورو □□

وفي حديث شاعرنا عن محبوبته البضة لينة الملمس ، وهي من جعلت منامه قليلاً ، وهذا شأن العشاق يرعون النجم ، ويسهرون الليل من جراء صبابتهم وعشقهم فهي فتاة ذات جسم لين يفوق ملمسه قماش (المدراسي) . ولعل مجنون ليلى قد تحدثت عن ذلك الجلد الناعم قبل الحارذلو بقرون كثيرة ، وذلك المعنى دأثر عند شعراء الغزل ، فلا غرابة إن المعاني مطروحة على الطريق ، يعرفها العربي والبدوي والعجمي □□ .
إذ يقول المجنون :

يدمي الحرير جلودهن ×× وإنما يكسين من حلل الحرير رفاقها □□

ويقول الحارذلو :
قالة منامي إن أصبحت وإن كت ماسي
ساعة فقدما جَدْن علي أمقاسي
جلداً مسوي يخفي طاقة المدراسي
من نيران غرام اللينة كيف خلاصي □ ٦ □

والحديث عن الجسم البض في شعر الحارذلو كثير الورد ، وفي يوم من ذات الأيام
خرج مع أخيه عبد الله لمناسبة ، فلقيتهم في الطريق فتاة جميلة . فسأل عنها وعندما
أخبروه أنها بنت (ضوة) وهي إحدى جواري الشكرية ولم يكن الحارذلو يعلم أن لضوة بنتاً
على هذه الدرجة من الجمال والحسن والملاحة ، وعندها توارت ربة الشعر في تيه المدل
وإدلال الفاتنات طائعة مختارة إذ قال :
حت عبد الله شاف الحال معانا ضعيفة
ما قال ضوة خلت في عقابها خليفة
الضايقين لماها قالوا : إن حلقونا خليفة
حلوة ولينة يدي في جليده من الزيفة □ ٦ □

والارتباط بين الحارذلو وبيئته نراه واضحاً في ثنايا أشعاره ، إذ نرى الكثير من
المصطلحات المحلية التي هي من صميم واقع حياة الحارذلو ، إذ يشبه معشوقته بقصب
الذرة الأخضر الذي رعاه صاحبه وقام بنظافته والعناية به إلى أن وصل إلى مراحل تسر
الناظرين إذ يقول :
تيا حارسو حرّاتو وسايس وفارك
عقب الحرّة صقّار من سموم مدّارق
اتناين عروقو وراح فصيصو يزارق
لامن جاهو نسّام العقمر مسّارق □ ٦ □

والحارذلو يحب ويعشق الفتاة المتأودة في مشيها ، ولم يكن هو أول من فطر ذلك الطريق
، فقبله عشاق العرب تحدثوا كثيراً عن ذلك الملمح الجمالي إذ يقول ...
كأن مشيتها من بيت جارتها مرّ السحابة لاريث ولا عجل □ ٦ □
وعندما رأى الحارذلو إحدى الفتيات مسرعة في مشيها قال مخاطباً لها شعراً ، طالباً
منها أن تتأنى في مشيها وتقتصر خطاها ، لأن ذلك من الأشياء التي يعجب بها عشاق

الجمال :

مما قمتي فوق ساحك مولع ضيك
ما اتبعت عر لافية العطاش بي ريك
السرع والنشاط ما بشبهن لي ذيك
تاتي المشية خلي الناس تموت بي غيك (٦)

والحارذلو مولع بمواطن الجمال في المرأة يتبعها ويتحدث عنها واصفاً لها وصفاً دقيقاً وصف العارفين العاشقين ، وهنا تحط رحلها عند ذلك الشعر الفاحم ، وهو محط أنظار الشعراء منذ الجاهلية الأولى وهو من سمت الفتاة الجميلة ، ونرى الحارذلو يتحدث عن إحدى معشوقاته ، وهي ذات فرع مضفر أكواماً ، وهو طويل جداً ، طبيعة وليس صنعة ، ومشيئها ثابتة رزينة ، هذا علاوة على أنها حصان رزان ، غير متاحة للعشاق والمجان ، فيبينها وبين الوصول إليها أهوال ومعاطب ، تستعصي على الفرسان الشجعان . يقول :

قرنك برعو هو وجدعو كلاقة
قرطن فوق عقد ورقك برا لصاقة
ست سرقة مشية ثابتة خاتية شلاقة
دي قسييت على فرسانا والدرافة (٦)

والحارذلو شاعر فنان نال حظاً كبيراً من البادية ، كما نال حظاً يسيراً من التحضير ، فكان طليقاً في تسخير الكلمات من أجل التعبير الصادق عن جواه وعشقه ، ونراه تاره يشكو إلى الله تعالى عدم عثوره على الشخص الذي يدرك معنى الكلمات ، هذا السر الإلهي العظيم .. الذي يفسر مكنون النفس بآلامها وأحزانها . . . فالشاعر يحب ويريد أن يوصل هذا الحب لمن يحبه عن طريق الكلمة الرشيدة المبدعة ، التي قد يحولها ويحرفها من لا يدرك معناها ومبتغاها . ومن بعد ذلك يعود على تشبيه تلك الفتاة بذلك الجدي الصغير ، الذي يرعى في موطن الكلاً ومكان الماء ، وتشبيه الفتاة بالطيبة له مركزه التاريخي من العربية عبر القرون إذ يقول :

يا خالق الوجود أنا قلبي كاتم سرو
ما لقيت من يدرك المعنى يهواً أبرو
بهمت منصح الوادي المخدر درو
قدت قلبي تطوي وكل ساعة تفرّو (٦)

السفور في غزل الحارذلو :

والحارذلو في شعره الواصف للمرأة نراه تارةً ظاهراً عفاً نقياً ، ونراه تارةً أخرى ماجناً سافراً ، متحدثاً عن المرأة حديث المجان . ونراه يتحدث عن تلك الفتاة المتفنجة في حديثها في الصباح الباكر ، عندما سمع ذلك الصوت الحنون الدافئ الذي منعه من إعداده لجملة لغرض السفر إذ يقول :

البارح رقادي كسيرة فوقه بريش
راكوبة تجيب صقطة ومعاها رشيش
للحماني ما أشهل جمال العيش
هنهينا بسونوا الدغيش بي شيش (٦)

ونرى الحارذلو في الأبيات السابقة يستخدم ألفاظاً يظنها القارئ لا أصل لها وذلك في نحو كلمة (هنهينا) ولكن الراجح أنها كلمة عربية قحة ، وعمدتنا في ذلك ما ذهب إليه بروفيسور إبراهيم القرشي إذ يقول : « إن (الهنهين) هو إخفاء الصوت مع شيء من الفنج والدل » ويقول الثعالبي : « إذا أخرج المكروب صوتاً رفيعاً فهو الرنين ، فإذا أخفاه فهو الهنين ، فإذا أظهره فخرج خافتاً فهو الحنين ، فإذا زاد فيه فهو الأنين ، فإن زاد فهو الخنين ».

وللحارذلو صويحبات يمنحهنه ما يشاء ، ولكن ذلك بمقدار إذ لا يبالغ في الإعطاء ، ولا يحجرنه البتة ، فهن بين ذلك وسطاً ، إذ يقول في معشوقته الحمديّة :

حمديّة السرور ما ركبوك فوق عر
ما بتمجدك تقطع قراك بالمرّ
إن جادت عليك تدّيك مويخراً در
وعقبان تربّعك لامن تضوق الشر (٦)

ونرى الحارذلو في ثنايا قريضه المعاني تأتي مصاغة بصور شتى ، وذات المعنى السابق في وصف المحبوبة غير المتاحة كلياً ، وغير المحجورة للأبد يقول :

البارح أنا وقصبة مدالق السيل
في ونسة وضحك لامن قسمنا الليل
وكتين النعام إتشقلبنوا الخيل
لا جادت ولا بخلت علي بالحيل (٦)

ونرى أن الحار دلو يستخدم في أشعاره القاموس الشعري المحلي ذو المرجعية العربية ، وذلك نحو قوله (إتشقلبنا) وشقلبه بالمعجمة في لغتنا صرعه ، يقال فلان إشقلب من الكرسي إذا سقط، والمشقلب بفتح الميم المعكوس. (١٠)

هذا المعنى المصاغ بأكثر من طريقة إن دل إنما يدل على أن ذلك السلوك قد أقام في نفس صاحبه إقامة حسنة فملك عليه قياده حتى صرح به في مواطن مختلفة فلا غرابة في ذلك إن أن الإنسان إذا أحب شيئاً أكثر من ذكره .

والحار دلو دائم العناية بوصف المحبوبة مستخدماً اللغة بحقيقتها ومجازها ، وهنا نجده يشبهها بالطيبة لأنها شبهها في الرشاقة وسرعة الالتفات ، يقول الحار دلو :

بنت الما بريدن حايمة الصفير

على هنباي لقن زوزايت أما اضفير

درعاتا تغلب شقلة والكانفير

بدري الليل تعديه حنبة ونفير (٦)

ونرى الحار دلو يصف في موطن آخر معشوقته الضامرة الرزينة التي أخجلت الذهب بنور وجهها وصفائه ، لو كتب للإنسان أن يقبلها ويجعل يدها وسادة لقنع وتاب من جميع الشبابات غيرها ، يقول :

مبرومة الحشا الميا الخفيفه وطيرة

خجل التبري من ضو جبتها وتويره

زولا مج بريطماته ووسدتو يسيرة

كان يقنع وتوب من الشبابات غيره. (١٠)

الخاتمة

تناولت الدراسة مقومات شعر الغزل عند الحار دلو ، حيث تضمنت السيرة الذاتية للحار دلو ، وقبيلته التي نشأ فيها ، ثم تعريف الغزل في اللغة والاصطلاح ، كما تناولت الدراسة الغزل في الشعر العربي ، ثم عاجت بد ذلك على مقومات شعر الغزل عند الحار دلو . توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية :

أولاً: إن الحار دلو ونتيجة للحياة الوادعة الناعمة التي عاشها نجده قد هام بالإيماء علاوة على هيامه بالحرائر ، وتحدث عن الإيماء حديثاً سافراً .

ثانياً: كما أن الحار دلو سار على نهج الأقدمين في معانيهم التي وصفوا بها المحبوبة ، من نهد ضارب ، ولى لعساء ، وشعر طايل .

ثالثاً: إن لغة الحار دلو من مصطلحات قبيلته التي حافظت عليها مئات السنين . رابعاً . إن الحار دلو في شعره الغزلي يجنح إلى التشبيهات الواسعة ، فوجه محبوبته مشع كالشمس في رآد الضحى ، وعيونها كالسهم القاتل ، وفرعها كالليل الداجي . توصي الدراسة بتناول شعر الحار دلو من أطر مختلفة ، وجوانب متعددة .

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم .

- ١ . بدوي ، أبو القاسم محمد ، ١٩٥٢م ، من الأدب القومي ، الدوبيت ، مطبعة التمدن ، ط ١
- ٢ . البشير ، الطاهر محمد علي ، ١٩٧٨م ، الطبيعة في شعر الحار دلو ، مطبعة عاطف
- ٣ . التبريزي ، أبوزكريا يحيى بن علي ، ١٩٩٧ ، شرح القصائد العشر ، ضبطه وصححه محمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،
- ٤ . الجاحظ ، أبو عثمان عمر بن بحر ، ١٩٩٨ ، الحيوان ، تحقيق محمد باسل ، دار الكتب العلمية ، بيروت
- ٥ . الجوهري ، اسماعيل بن حماد ، ١٩٩٩ ، الصحاح ، تحقيق أميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ .
- ٦ . الحار دلو ، إبراهيم الحار دلو ، ١٩٩١م ، ديوان الحار دلو ، الدار السودانية للكتب .
- ٧ . أبو سليم ، محمد إبراهيم ، وثائق سنار الأرض .

٨. أبوسن ، أحمد إبراهيم ، ٢٠٠٠ ، تاريخ الشكرية ونماذج من شعر البطانة ، مطبعة التمدن المحدودة ، الخرطوم ، ط
٩. ضرار ، ضرار صالح ، ١٩٩٧ ، هجرة القبائل ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط ١ .
١٠. الضيرير ، الشيخ عبد الله عبد الرحمن ، ١٩٦٧ ، كتاب العربية في السودان ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .
١١. الطبراني ، سليمان بن أحمد ، ١٩٨٦ ، المعجم الكبير ، تحقيق حمدي عبد المجيد ، مطبعة الزهراء ، ط ٢ ،
١٢. الطيب ، الطيب محمد ، الاندائية ، بدون
١٣. عابدين ، عبد المجيد عابدين والمبارك إبراهيم ، ١٩٥٨ ، الحار دلو شاعر البطانة ، ط ٢ .
١٤. أبو عاقلة ، حسان أبو عاقلة ، د.ت. ، سياحة في عالم الشاعر أحمد عوض الكريم أبوسن ، شركة كسلا للطباعة والنشر
١٥. عباس ، إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط ٤ ، سنة ١٩٨٣ م .
١٦. قاسم ، عون الشريف ، ١٩٩٦ ، موسوعة القبائل والأنساب في السودان ، شركة أفرو قراف للطباعة والتغليف ، الخرطوم ، ط ١
١٧. ابن قتيبة ، ١٩٠٣ ، الشعر والشعراء ، دار صادر ، لبنان
١٨. المجنون ، ديوان مجنون ليلي ، شرح يوسف فرحات ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة ٢٠١٠ .
١٩. محمد ، سراج الدين ، د.ت. ، الغزل في الشعر العربي ، دار الراتب الجامعية ، لبنان ، بيروت .
٢٠. ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي ، ١١١٩ هـ ، لسان العرب ، دار المعرف القاهرة ، ج ١ ، ص ٦٥ .
٢١. الهندي ، الشريف يوسف ، الشعر والغناء ، (مخطوط)